المحاضرة السادسة نشأة اللغة (2)

1. نظرية الغريزة:

أصحاب هذه النظرية هم مكس موليرMax Muller رونانRenan رد نشأة اللغة إلى الغريزة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، و أنّ الغريزة يحملها كلّ فردٍ يعبر عن كلّ مُدْرَكٍ حِسيّ أو معنويٍّ خاصّة به، كما أنّ غريزة (التعبير الطبيعي عن الانفعالات) تُحمل الإنسان على القيام بحركات و أصوات خاصّة انقباض الأسارير و انبساطها و وقوف شعر الرأس، الضحك، البكاء، و الخوف، فهي موحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها و وظائفها، و مل يصدر عنها، و أنّه بفضل ذلك اتّحدت المفردات و تشابهت طرق التعبير عند أفراد الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، و بتالي نشأة اللغة .[1]

حجتهم في ذلك بعد البحث اكتشف مكس أنّ أصول الكلمات في اللغات الهندية والأوروبية، ظهرت له أنّ مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك؛ هذه الأصول هي التي تمثل اللغة الإنسانيّة في أقدم عهودها.[2]

الرد هذه النظرية لا تحلّ المشكلة، بل وضعت مشكلة أخرى أكثر منها غموضا و هي مشكلة الغريزة الكلامية.

2. نظرية محاكاة الأصوات:

أنّ اللغةَ الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعي عن الانفعالات) كأصوات الضحك و الرعب و الحزن ،و الغضب، و غيرها من أصوات الطبيعة كدوي الريح، و حنين الرعد و خرير المياه.

أصحاب هذه النظرية من القدماء ابن جني كان معجبا بهذه النظرية، حتى و أنه تحدث عنها و شرحها في عدة مظاهر لغوية و قال في ذلك :" من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها ألا تراهم قالوا : "قضم"في اليابس و "خضم في" الرطب ذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف. وكذلك قالوا: "صر " للجندب فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته وقالوا: صرصر البازي فقطعوه لما

[1]- ينظر علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص100

[2]- ينظر علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص101

هناك من تقطيع صوته وسموا الغراب غاق حكاية لصوته والبط بطاً حكاية لأصواتها وقالوا " قط، و قد الشيء " إذا قطعه عرضاً " وقده " إذا قطعه طولاً وذلك لأن منقطع الطاء أقصر مدة من منقطع الدال.[3]

حسب هذه النظرية يكون الانسان قد افتتح هذه السبيل لمحاكاة أصواته الطبيعية، ثمّ أخذت هذه اللغة تتسع نطاقها تبعا لارتقاء التفكير و إتساع حاجات الإنسان و مظاهر حضارته،[4] و بهذا فسروا نشأة اللغة على أساس نظرية تقليد أصوات الطبيعية حجتهم في ذلك أنّ مراحل تطور اللغة تشابه مراحل الأولى للأطفال في ممارستهم أوّل المقاطع من الكلام وتطورها .[5]

ردا على هذه النظرية فندريس يقول: " قد ينجح الإنسان في البحث عن هذا المطلب في كلام الأطفال فهي لا تدلنا على شيء من كيفية نشوءها[6] و يستخلص من ذلك : " شيء في هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان .[7] فهو يوضح أنّ لغات المتوحشين بعضهم يتكلمون على درجة من التعقيد، و بعضهم يتكلمون لغة على درجة من البساطة مستنتجا من ذلك أنّ التغيرات تغيب عن نقطة البدء التي صدرت عنها، ثمّ يشير إلى الفرق بين لغات الشعوب متحضرة و لغات المتوحشين فهذه الفرو قات بين اللغات تفيدنا في معرفة ما بين الكلام و الفكر من روابط .[8]

ثم الصورة البدائية لكلام الأطفال لا تقدم تفسيرا مطلقا بل هي محاولة فاشلة لأن الأطفال يتعلمون كيف يتحصل على لغة منظمة فإنّه يقوم بمحاكاة الخلق ولا الطبيعة. سارت هذه النظرية بعد الرقي شيئا فشيئا لارتقاء العقلية والإنسانية وتقدم الحضارة، واتساع نطاق الحياة.[9]

ردا على النظرية محاكاة أصوات الطبيعة يرى بعض العلماء؛ أنّ مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية، بمعنى أنّ اللفظ يدلّ على معناه دلالة وجوب، لا انفكاك فيها. ومن زعم هذا الرأي عبّاد بن سليمان الصيمرى وهو من المعتزلة فقد ذهب إلى أنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية، حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك بإزاء هذا المعنى أو ذاك.[10] تمثيلا لذلك لقول السيوطي: إلاّ

---

[3]- ابن جني، الخصائص 1/ 36

[4]- ينظر علي عبد الواحد وافي، علم اللغة،ص 104، 105

[5]- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة بيروت 1392 هـ-1972 م، ص90

[6] - فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، 1950، ص30

[7]- المرجع نفسه، ص31

[8]- المرجع نفسه، ص31

[9]- نظريات اللغة أنيس فريحة ص16

[10]- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997 م، ص 113.

كان تخصيص الاسم المعيّن ترجيحا غير مُرّجح، فسئل ما مسمىّ" أذغاغ "وهو بالفارسية الحجر؛ كما يقولون: أجد فيه يبسا شديدا، وأراه الحجر.[11]

مناسبة الاسم للمسمى يأتي غالبا من ماهو طبيعي ك صوت البط وصوت الغراب، وصوت أكل اليابس وصوت القد لقطع بالعرض وقط لقطع لطع بالطول. لكن ما القول في المصنوع الذي لا يحدث صوتا. ولكلّ ما هو مستعمل وُضع له مسمى بالاتفاق والذي تفاهمت عليه الجماعة الواضعة تكلم به المجتمع ودونت في المعاجم. إذن نشأة اللغة لاتعود لمحاكاة الأصوات ولا الغريزة ولا التواضع بل تتداخل كل هذه المصادر وكذا لا ننسى دور العلماء اللغة في تدوين ما جار على لسان الجماعة المتكلمة وما هو شائع، فاللغة ليس بنشأتها وإنّما بتطوّرها ونموها وتوسيع رصيدها لأنّ المنشأ بحث متعب خاصة إذا لم يجد الباحث اللغوي عن ظالته.

[11]- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط3، مكتبة دار التراث